المـــــرأة

ثمّ المرأة

أمِنْكِ برقٌ أبيت الليل أرقبُه   كأنّه في عِراض الشام مصباح ؟

نابليون : مدام : اني لا أحب أن تتعاطى المرأة في السياسة.
أرملة كوندورسيه : ذلك الحق أيها الجنرال . ولكن من الطبيعي
في بلد تحتزّ فيه رؤوس النساء ، أن يكون
لهن الحق في أن يسألن عن السبب في ذلك .

وغالب الظن انه في بلد يعيش نساؤه مستعبدات أو في حكم المستعبدات ، يعملن للمستقبل ويعملن للحاضر ويقمن بين الحقول والمزارع بأعمال لا يصح أن يقوم بها غير دواب الحمل، وتؤكل أموالهن وتغتصب حقوقهن ويشرع لهن ولا حق لهن في الاحتجاج ، ويرسم حاضرهن ويخط مستقبلهن ، ولا يمثلن في ناحية واحدة من نواحي الحياة الاجتماعية ، ويخضعن لقانون الخراج في أن يستعمل الشطر الأغلب من شطري الجمعية حق الأقوى ، حق المتسلط ذي الارادة المطلقة في إقامة الحدود التي لا ينبغي أن تتخطاها حقوق المرأة ، . . . فغالب الظن أن يكون للمرأة في مثل هذه الجمعية الحق كل الحق في أن تسأل عن السبب في ذلك ؟

من حق المرأة في بلد كهذا أن تسأل عن السبب في ذلك ؟ وبخاصة حين ترى أختها الاوربية تشارك في الحرب وفي المصانع الحربية وتقطع البحار وتجوب القفار وتعمر المصانع والمعامل وتشترك في معارك الأدب والعلم والاجتماع والفن ؛ وحين ترى أختها الروسية تضحي بدمها في سبيل إنقاذ ستالينجراد تحت جنح الليل وفي غمار الثلوج وتحت نيران العدو وعلى مياه الفولجا الباردة المقرورة . .

من حق المرأة في بلد كهذا أن تسأل عن السبب في ذلك ؟ وبخاصة عند ما ترى ان أخواتها الاوربيات اللاتي ذكرناهن أنجب من أبنائها وأنجح في الحياة وأقوى شكيمة وأثبت خلقاً وأروع رجولة . فمن أين أتى ذلك ؟ أظن انه من نكران الحقوق المدنية على المرأة الاوربية، أن ذلك العمل الفذ الذي قام به أبناؤها ، وليس له في التاريخ مثيل مذ كان

للانسان تاريخ. أظن انه آتٍ من قبوع المرأة في عقر دارها وعدم تمتعها بالحقوق السياسية والاجتماعية، على المبادئ التي يريد أن يقيم عليها بعضنا حياة المرأة في بلادنا وفي الشرق.

كيف تأتى للمرأة الاوربية أن تربي أبناءها هذه التربية الاستقلالية الحرة؛ ولم يمنعها التمتع بحقوقها، التي أقول انها طبيعية، عن ذلك؟ كيف نشأت الرجال الذين يريدون التسود على كرة الأرض، وهي بين جدران المصنع وفوق ظهر الباخرة وبين أجنحة الطائرة وفي القفار والصحاري والغابات. كيف تأتى لها ذلك؟ أمن أجل انها من طينة غير طينة البشر أجمعين؟ هل تأتى لها ذلك وهي في حجرة النوم وفي المطبخ؟ كلا أيها السادة: تكلموا فيما تحسنون.

لماذا يكون العمل والحرية والانتاج والمشاركة في بناء المدنية وفي الحرب والصناعة، فضيلة في المرأة الاوربية، ورذيلة في المرأة الشرقية؟ أفمن حق المرأة الاوربية أن تكون حرة، وليس ذلك من حق المرأة الشرقية؟ أخلقت الأوربية مختصة بهبة الهية فتعرف اللذة والألم، وخلقت المرأة الشرقية مكفوفة عن هذه الهبة فلا شعور لها باللذة ولا إدراك عندها للألم؟ هل كوّنت نفس المرأة الاوربية ولها المشاعر والانفعالات والعواطف والحب والبغض، وكوّنت نفس المرأة الشرقية محجوبة عن كل ذلك؟ سبحانك موزع الحظوظ.

***

لا يزال منذ أن أصدر قاسم أمين كتابه «تحرير المرأة» في الموقف نفسه: فريقٌ يقول أن المرأة للمنزل؛ وفريقٌ يقول إن المرأة للحياة. لا يزال البعض منا في نفس الموقف الذي وقفه «روسو» من نساء فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر، تؤثر فينا التقاليد التي كانت طابع الحياة القديمة والتي ما عرفت معنى الحرية ولا معنى الحقوق الإنسانية. فإن روسو بالرغم مما أشاد بالحق السياسي وبالحرية وبالرغم من أنه قال إن تلك الحقوق طبيعية لا تسقط عن الإنسان ولا تسلب منه، حتى ولو تعاقد هو نفسه على حرمانه منها، وقوله إن حق التصويت حق عام لكل أفراد الجمعية، فقد ذهب إلى جانب هذا مذهباً عجيباً إزاء المرأة فلم يسلّم بأن لها حقاً يقال له الحق السياسي.

لقد كتب روسو كثيراً عن المرأة، وفصّل الفوارق التي تفصلها عن الرجل. ولكن لم يزل كاتب من كتّاب القرن الثامن عشر إلى ذلك الدرك الذي انحدر فيه روسو إذ قال: «خلقت المرأة لتكون ملهاة الرجل». وقال أيضاً — «ينبغي أن يكون تعليمها متصلاً بحاجات الرجل؛ فتكون له تسلية وفائدة وموضعاً حبه واحترامه؛ وتربي أولاده صغاراً

وتعنى بهم كباراً ، وتبذل لهم النصح وتتفجهم بالعطف ، حتى تصبح حياتهم هادئة مرحة. كانت هذه الأشياء خلال كل العصور واجبات المرأة ، ومن أجل هذه الواجبات يجب أن تتعلم المرأة من الصغر ».

هذا المذهب القديم لا يزال طابع الفكر عند الكثيرين من أنصار التقاليد العتيقة في هذه البلاد وفي كثير من البلدان الشرقية ، وبخاصة العربية منها . غير أن الفرق بين ما كتب في أواخر القرن الثامن عشر في أوربا ، وبين ما يكتب عندنا في أواسط القرن العشرين ، إن سقطتنا قد بلغت من الضعف ، أضعاف ما بلغ كلام روسو من سوء الفهم .

***

بلغت السخافة عند بعض الكتاب الذين تصدوا للكلام في المرأة والحياة العامة مبلغ أن فرض بعضهم حالات لا وجود لها في الطبيعة ولا حقيقة لها إلا في الخيال المحض ، وبنى على هذه الفروض وتلك الخيالات القضايا واستخلص النتائج ، ورح يناضل عن وجهة من النظر لا علاقة لها بهذه الفروض على أطلاق القول .

قال بعضهم : « لو أن عالم الانسان كان كله ذكوراً ، أو أنه كان كله اناثاً ، أو كان شيئاً بين هذين : لا هو بالذكور الصرف ولا بالاناث المحض ، — أريد أن أقول : لو أن الانسان لم يخلق هكذا مؤلفاً من جنسين مختلفين ، بل كان جنسه جنساً واحداً ، — أكانت حياته هي هذه التي نراها حياة مليئة بالشر والاضطراب ، أم تكون حياة وادعة مطمئنة مليئة بالراحة والهدوء والصفاء ؟»

« أعتقد أن تسعين في المائة أو أكثر ، من هذا الوبال الذي يعانيه الانسان ، سببه مجموع أمرين : أحدهما أنه خلق من جنسين مختلفين . والآخر أنه أساء فهم النظم الطبيعية لتلك الرابطة الجنسية ، التي وضعتها الطبيعة ونظمتها الشرائع ، ليتعاون الفريقان على المرافق الحيوية ، وبكلاهما على بقاء النسل وحفظ النوع ، أو قل أن سببه هو الأمر الثاني فقط » .

فانظر أي فرض يفرضه الكاتب وأية مقدمات يتخيل لموضوع فرضت منه الطبيعة منذ ملايين عديدة من السنين . يريد أن يتخيل ثلاثة عوالم : الأول عالم كله رجال . والثاني عالم كله نساء . والثالث عالم كله خناث : نصفه خناث إلى الذكور والنصف الآخر خناث إلى التأنيث . وكل هذه العوالم الخيالية عنده تكون عوالم مليئة بالراحة والهدوء والصفاء ! أما العالم الذي نصفه رجال ونصفه نساء ، فهو السبب في تسعين في المائة أو أكثر من هذا

الوبال الذي يعانيه الانسان ، وان الانسان أساء فهم النظم الطبيعية لتلك الرابطة الجنسية التي وضعتها الطبيعة ونظمتها الشرائع، إلى آخر ما يقول .

أما الطبيعة فلم تخطىء قيد شعرة . فقد خلقت من الحيوان ذكراً وأنثى وبثت فيه الميل الجنسي ليكون ذلك حافزاً لحفظ النوع وتوالي الحياة على وجه الأرض . قاعدة لم تند عنها الطبيعة الا في الحيوانات الدنيا التي استعاضت عن التبادل الجنسي فيها بالتكاثر بالانقسام أو بالتبرعم . وإذن يكون الخطأ في الشرائع التي نظمت هذه العلاقة على غير قاعدة طبيعية . هذا ما تسوق اليه المقدمات التي ساقها ذلك الكاتب .

ثم إن القول بأن خلق الانسان من جنسين خطأ ساق إلى الوبال الذي نعانيه ، لو أنك حللته تحليلاً منطقياً لبان لك أمران : فاذا كان القائل به من الدهريين لدل ذلك على أن علمه بالطبيعة ناقص وفهمه لحقائق الحياة من الناحيتين الحيوانية والاحيائية بعيد عن الاستواء . وإذا كان من المتدينين كان ذلك اعتراض على الخلق وحكمته لا يصدر إلا من متورط إلى الكلام في ما لا يعلم . وإذاً يكون محصل ما قال ذلك الكاتب ان الشرور التي وقع فيها العالم سببها أن الشرائع نظمت علاقة الرجل بالمرأة تنظيماً جرّ علينا ذلك الوبال . لأن الطبيعة أقامت الخلق على قاعدة أن يكون فيه ذكر وأنثى ؛ فلا يعقل أن تجعل للانسان دون سائر الاحياء العليا لغة أخرى غير لغتها، ومنطقاً آخر غير منطقها .

ثم انظر اليه كيف يقول : « لم تخلق المرأة لتكون للرجل شغله الشاغل في هذه الحياة فاذا ما حارب ، كان في خبيئة قلبه أن سيرقى منصباً أو ينال رتبة ، فيفوز بتقدير المرأة ويسعد باقبالها . وإذا ركب البحار وخاض الغمار كان في قرارة نفسه إنه سيصبح ذا ثراء وفير وخير كثير ، فتزدلف اليه المرأة، وإذا ما سعى ليكون رئيساً عظيماً أو مديراً كبيراً أو وزيراً خطيراً ، كان أكبر همه فيما سعى اليه ، أن يحظى برضاء المرأة وينعم بتودد المرأة » .

« لم تخلق المرأة ليعبدها الرجل أو ينافق لها نفاقاً يبلغ درجة العبادة أو يزيد . أما تراه كيف يركع لها في خشوع المتبتل وصغار المستعبد إذا أقبلت ، وكيف يلمس أناملها وقد وضع يده على قلبه يمسكه أن يخر تحت قدميها ، وكلنا يعلم إن هذا تصنع زائف : وإنه لا يتفق وما يعاملها به في ناحية أخرى ، حيث يصب عليها جام غضبه ويذيقها العذاب ألواناً حين ينتهي أربه منها » . اهـ

صورة لم تخلق إلا في مخيلة الكاتب ، وأوهام لم يقم عليها أي مجتمع إنساني مذ كان الانسان مجتمع . الرجل يعمل ويكد ويحارب ويقيم الدولة ويقطع البحار ويجوب القفار ،

ويمشي على الرمضاء صيفاً ، وعلى الزمهرير شتاء ، لماذا ؟ ليفوز بتقدير المرأة ويسعد باقبالها ويحظى برضاها وينعم بتوددها ، فاذا أقبلت ورضيت وتوددت صب عليها جام غضبه وأذاقها العذاب ألواناً حين ينتهي أربه منها ! أسمعت أيها الانسان المتمدن بمثل هذا في خطوب الاولين ؟

فروض لا أساس لها من العقل ولا من الواقع ، وتوهمات لا يؤيدها برهان ولا يقوم عليها دليل ، تتخذ أساساً لبحث في المرأة ومنزلتها من المجتمع وأثرها في اقامة دعائم التمدن ، وتكييف حالات المستقبل . وهي فوق ذلك فروض ليس لها سند في الطبيعة ، ولا موئل في الطبع ، ولا تمت بصلة ما إلى مجتمع بذاته من المجتمعات الانسانية . فأين الرجل الذي يحارب متودداً للمرأة ، وأين الانسان الذي يركب البحار ويخوض القفار لتزدلف اليه المرأة . وأين الجماعة الانسانية التي عاشت وهذا طابعها في الحياة ؟ لا شك في أن ذلك كله قد قام في وهم ذلك الكاتب لا أكثر ولا أقل وغاية همه من ذلك العنت ، بل من ذلك العبث ، أن يقول « السعي خارج المنزل وقد خص به الرجل ، والعمل داخل المنزل وقد خصت به المرأة » هو جماع ما في الجمعية البشرية من حكمة الحياة .

***

أما اذا أردنا أن نتكلم في هذا الموضوع كلاماً تفهمه الطبيعة فينبغي علينا أن نعتقد أن المرأة لها من الحقوق وعليها من الواجبات مثل ما للرجل تماماً ، وان النظامات العتيقة وحدها هي التي جعلت من المرأة ذلك المخلوق المهان المستضعف ، وأن الطبيعة أعدت المرأة أول ما أعدتها لتكون شريكة الرجل في الحياة بأوسع معانيها وبكل احتمالاتها ومطلوباتها . شريكة لها حق الحياة والعمل والكسب والسعي ، ولها فوق ذلك حق طبيعي لا يسلب ولا يُستَعطى ، هو حق الحرية ، التي هي الحياة . اسماعيل مظهر

الجاهل لا يؤمنك شر الجاهل قرابة ولا جوار ولا إلف ، فان أخوف ما يكون الانسان لحريق النار أقرب ما يكون منها . وكذلك الجاهل ان جاورك أنصبك ، وان ناسبك جنى عليك ، وان ألفك حمل عليك ما لا تطيق ، وان عاشرك آذاك وأتعبك . مع انه عند الجوع سبع ضار ، وعند الشبع ملك فظ ، وعند الموافقة في الدين قائد الى جهنم . فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الاساود ، والحريق المخوف ، والدين الفادح ، والداء العياء . « ابن المقفع »